OPEN ACCESS
Journal of Arabic Research (AIOU)
jar.aiou.edu.pk
iri.aiou.edu.pk

الحب والشكوى في الغزل العذري

The Concept of Love & Complaint in Virtuous Poetry

۞ محمد شفيق

محاضر قسم اللغة العربية و آدابها،بالجامعة الوطنية للغات الحديثه،إسلام آباد باكستان

۞۞ د. كفايت الله همداني

رئيس قسم اللغة العربية وآدابها،الجامعة الوطنية للغات الحديثة إسلام آباد باكستان

ABSTRACT

Erotic Ghazal is the main subject of poetry in Pre-Islamic Era. Usual poet stands at the ruins of his beloved، crying and then he recalls the meeting which provokes in him the anguish and sorrow. Then he goes on to talk about her beauty or he might be flirting with her organs. But after the arrival of Islam ، they completely moved away from these vulgar topics and started poetry that touches on the dignity and honor of women. So the Virtuous Poetry started in Umayyad Period and reached at its climax in Abbasid period. This article present the various concepts of love and complain in Virtuous poetry.

Key Words: Erotic، Virtuous Poetry، Pre-Islamic Era، Love ، Complaint.

الغزل غرض من الأغراض الشعرية التي طرقها الشعراء في عصر ما قبل الإسلام، وكان يأتي ضمن موضوعات القصيدة عندما يقف الشاعر عند أطلال أحبته، يبكي ويستبكي من معه، وينتقل بعد ذلك إلى التغزل بحبيبته، فيذكرما كان يتم بينها وبينه من لقاء وحديث وسمر، مما يثير في نفسه اللوعة والأسى، بعدها ينتقل إلى الحديث بأسلوب غزلي عن مفاتنها، وعن مواطن الجمال فيها، أو قد يتعرض إلى التغزل بأعضائها.

ولكن بعد ما جاء الإسلام اختلفت الحال، إذ إنّ هذا الموضوع الذي كان يأتي ضمن موضوعات القصيدة، قد ندر الوقوف عنده عند شعراء صدر الإسلام، الذين تناولوه في قصائدهم، ابتعدوا فيه كلياً عما كان عند الشعراء الجاهليين، إذ كان الشاعر في عصر صدر الإسلام في غزله عفيفاً، بعيداً كل البعد عن كل ما يمس كرامة المرأة وشرفها؛ لأنّ الإسلام أعطاها مكانة متميزة في المجتمع، وقد قال الرسول الكريم محمد –صلى الله عليه وآله وسلم– في الحديث النبوي الشريف عن امرئ القيس وغيره من الشعراء الذين تجاوزوا في شعرهم على المرأة، فلم يقيموا لها أيّة حشمة واحترام، إذ قال –صلى الله عليه وآله وسلم–:"**امرؤ القيس حامل لواء الشعراء وقائدهم إلى النار**"[1] فهو يعني الشعر الغزلي الماجن (المادي والحسي) الذي ينظمه امرؤ القيس والشعراء الذين ساروا على نهجه بعد الإسلام كعمر بن أبي ربيعة المتوفى (93هـ) وأضرابه، "وظهور فريق

آخر من الشعراء العذريين كرد فعل ضد التيار الأوّل الذي قاده عمر، ونعني به الغزل العذري الذي تميز أصحابه بالعفة والطهر، ويكون صاحبه صادقاً مخلصاً لمن يحب، وقد انتشر هذا النوع من الغزل بوصفه غرضاً مستقلاً من الشعر شمال الحجاز في قبيلة بني عذرة- كأسلوب من الحب عرفت به هذه القبيلة من العرب- وهم ينتمون أساساً إلى قبائل بني قحطان من اليمن"[2].

والحب العذري حب مقموع- نهايته غير سعيدة، وتنتهي غالباً إلى عدم الزواج، وقد تصل نهاية المحب للموت- ومنطلقاته الأساسية: رهافة الحس والشعور، وعفة النفس وطهارتها، وجمال صارخ تميّزت به النساء العذريات فضلاً عن البداوة التي تميزت بها هذه القبيلة.

"ويروى أنّ رجلاً سأل أحد أفرادها بقوله: ممن أنت؟ فأجابه: أنا من قوم إذا عشقوا ماتوا، فقالت جارية سمعته: عذريٌ ورب الكعبة"[3] ومما يروى أنّه سئل أعرابي منهم: "ما بال قلوبكم كأنّها قلوب طير تنماث كما ينماث الملح في الماء؟ أما تجلّدون؟ فقال: إنّنا لننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها"[4].

ارتبط الحب بالشكوى ارتباطاً وثيقاً؛ لأن ما يعانيه المحب من ألم وحزن بسبب فراق أحبته يولّد في نفسه معاناة كبيرة تخرج من الأعماق المعذبة بتوجع.

"إنَّ الشكوى فن من فنون الشعر الوجداني العميق"[5]، وإحدى أغراضه، وسمّاها ابن قيم الجوزية (الشكاية)، وقال إنها في القرآن الكريم على نوعين: ملفوظ بها واستشهد بالآية/36 من سورة يوسف -عليه السلام-، وغير الملفوظ بها، واستشهد بقوله تعالى:﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ.....قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾[6](*)، ومن الشعر استشهد بقول الشاعر:[7]

إلى الله أشكو لا إلى الناس إنني أرى الأرض تُطوى والأخلاء تذهبُ

"والشكوى (عاطفة) أساسها الشعور بالحرمان، ولعلها من أَدَلّ الفنون التي تُفصح عن عاطفة الإنسان المتشائمة الناقمة..."[8] وقد عرّفتها الدكتورة بتول البستاني بأنّها: "تعني التوجع من شيء تنوء به النفس، كالمرض، والفقر، والشيخوخة، والحرب، والموت، والدهر، والخيانة، والغدر، والكذب، وتتجلى من خلال بثّ ما يعانيه ذو الشكوى إلى الآخرين"[9].

ومن ذلك فقد اقتضت طبيعة البحث تقسيم الشكوى على مبحثين:

المبحث الأول

الشكوى الذاتية: لقد عبر الشاعر العذري من خلال الشكوى الذاتية عن معاناته ومكابداته النفسية، وذلك بسبب الظروف والضغوط التي تعرض لها من العرف الاجتماعي، الذي حكم على العاشق

بالموت، عندما شرع بعدم زواج العاشق من محبوبته إذا ما شاع أمر حبهما... إنّه القتل، "والتحطيم الذاتي للنفس البشرية التي أحبت وصدقت في الحب، وأوّل ما يطالعنا في الشكوى الذاتية هو الشكوى من الحب، تلك العاطفة الإنسانية السامية التي أساسها التوافق والتبادل العاطفي المشترك بين الطرفين"[10] "إنّ الشكوى الناجمة عن الباعث العاطفي قديمة ومرافقة للإنسان منذ بدء الخليقة إلى ما شاء الله من عيش دنيوي، والتراث الأدبي مليء بقصص الحب التي جلبت على أصحابها الشقاء والتعاسة"[11]

قال مجنون ليلى:[12]

"وجدْتُ الحبَّ نيراناً تَلظَّى قُلوبُ العاشقينَ لها وقودُ
فلو كانت إذا احترقتْ تفانتْ ولكنْ كلّما احترقتْ تعودُ"

وقال:[13]

"وأنت التي صيّرتِ جسمي زجاجةً تنمُّ على ما تحتويه الأضالعُ"

وقال واصفاً لوعة الحب وأساه، وما ترك في نفسه من معاناة:[14]

"ولم يبقَ إلا الجلدُ والعظم عارياً ولا عظمَ لي إنْ دامَ ما بي ولا جلدُ"

ففي هذه الأبيات يشكو المجنون معاناته النفسية والجسدية بسبب فقدان الحب وفراق الأحبة، وقد رسم في كل بيت صورة فنية تكشف لنا عن معاناته الذاتية، إذ إنّ "الشاعر لا يقوم بوضع الكلمات والأوصاف الدالة على مشاعره وأنواعها، وإنّما يقوم بالتعبير عن خصوصية كل شعور يمر به، وليس هذا بالأمر الهيّن"[15].

أمّا قيس لبنى فهو يشكو من عذاب الحب الذي يؤجج نفسه بين الحياة والموت، فيقول:[16]

"لقد عذَّبتني يا حبَّ لبنى فقع إمّا بموتٍ أو حياةِ
فإنّ الموت أروحُ من حياةٍ تدومُ على التباعد والشَّتات"

فالشاعر يتخيل حبه للبنى إنساناً فيحاوره، فقد أتعبه هذا الحب ويتمنى وضع نهاية له، إما بالموت أو بالحياة معها سعيداً، لذا نجد أنّ " أهمية الصورة وعظمتها لا يتأتّى من كونها تطابق الواقع أو تعبر بوضوح عن المعنى المقصود، ولا يتأتّى من جمالها الخارجي، وإنما جمالها في مدى نجاحها بالتعبير عن نفسية الشاعر، وهذا يعني أن الصورة يجب أن تكون ممتلئة بالعاطفة"[17]، وقدم كثيّر عزة صورة صادقة لمعاناته النفسية، تنسجم مكوناتها مع عاشق يعاني ألم الفراق ويشكو جوى الحب، فقال: [18]

"ومازلتُ من ذكراك أشكو حتى كأنني أميمٌ بأكنافِ الديارِ سليبُ
وحتى كأني من جوى الحبِّ منكمُ سليبٌ بصحراء البُريحِ غريبُ"

لقد بين الشاعر هنا مدى شكواه المؤلمة من جراء شدة ألم الحب وعذابه بصورة إيحائية، لها تأثير عميق في النفس، "فليس الجمال فيما يعلنه الشيء الجميل، بل فيما يوحي به"[19].

أما جميل بثينة فقد شكا من وجده، ولم يجد أحداً قبله ولا بعده قد عانى من هذا الألم، فيقول:[20]

"وما وجدتْ وجدي بها أمُّ واحدٍ ولا وَجَدَ النّهديُّ وجدي على هندِ
ولا وَجَدَ العذريُّ عروةُ إذ قضى كوجدي ولا مَنْ كان قبلي ولا بعدي"

"تتحرك المعاني في البيتين في إطار دائرة (الشكوى) من الحب الذي ملأ قلبه وفاض به لدرجة كبيرة، جعلته لا يرى أحدا، قد عانى من نيرانه... وقد تلازم الحب والموت في شعر الحب العذري"[21]، لدرجة لا يمكن الفصل بينهما.

إن هذين البيتين يدلان دلالة قاطعة على الارتباط الوثيق بين ثنائية الحياة والحب / الموت والحب؛ إذ إن الشاعر يجد تلازماً صميمياً بين طرفيها لا يمكن فصلهما، إذ إن ما يسلط على العاشقين من قوة قسرية دنيوية لا تزيدهم إلا إصرارا على التمسك بطرفي تلك الثنائية، لذا بقي حبهم حباً خالداً إلى اليوم.

وقد زَجَرَ قيس لبنى قلبه بعدما لجَّ به الهوى، وشكا من كلفه بالحب، فقال:[22]

"وقلت لقلبي حين لجَّ بيَ الهوى وكلفني مالا يطيقُ من الحبِ
ألا أيها القلبُ الذي قاده الهوى أفِقْ، لا أقرَّ الله عينك من قلبِ"

فالشاعر هنا نقل لنا صورة متكاملة ومترابطة عن نفسه المعذبة وحزنها الواضح، وشكواها من الحب بعد وقوع الفراق، ذلك من خلال تكراره للفظة (القلب) ثلاث مرات، فضلاً عن توجيه الخطاب له: (وقلت لقلبي) و(ألا أيها القلب) و(لا أقر الله عينك من قلب) وكأن القلب هو سبب مأساته وحزنه وهو يجسد صورة الآخر ضمن ثنائية (الشاعر/الآخر)، ليؤكد الحدث (تمكن الحب من قلبه)... وهذه الصورة ذاتية تكشف حرارة العاطفة وقوة الانفعال، وعن طريقها استطاع الشاعر أن يتخير الصورة الشعرية المناسبة لحالته النفسية والمعبرة عن تجربته الحياتية، إذ "إن أهم ما يميز الشاعر عن غيره هو القدرة التخييلية التي تجعله قادراً على الجمع بين الأشياء المتباينة والعناصر المتباعدة في علاقات متناسبة.."[23]، والخيال "هو الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم، وهم لا يؤلفونها من الهواء، إنما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها، تختزنها عقولهم وتظل كامنة في مخيلتهم، حتى يحين الوقت، فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها.."[24]، "والصورة من نتاج الخيال؛ لأن الخيال يولّد دائماً صوراً جديدة" [25] من شأنها أن تثير في النفس من المشاعر والإحساسات والمعاني ما يؤجج العواطف.. والشاعر العذري ذو خيال واسع فذ يفيض في معناه، حيث يصف لنا معاناته النفسية وصفاً فيه دقة في ذكر التفاصيل، وما يعتري هذه النفس من ألم ووجد وفراق وحزن وبكاء... وفيه تحديد للمكان والزمان، وفيه حركة وحياة.

وإذا أردنا أن نتصفح دواوين هؤلاء الشعراء نجد نماذج كثيرة تقدم لنا مثل هذا الوصف التصويري المفعم بالمعاني المتخيلة؛ لأنهم كانوا يُعنون بتصوير ما يعانون من الهيام والمذلة... ووصف ما يخالجهم من وجد ولوعة فراق، لذلك جاءت كلماتهم معبرة عن كل ذلك بألفاظ سلسة، حاملة معها صفة الجودة والعذوبة، ولعل هذه الصفة تعطينا تصوراً لتقبل ما تتطلبه حياة الشعراء من معاني جديدة، تتماشى مع المفاهيم الجديدة التي هي نتاج عقلية متطورة أورثتها الثقافة الإسلامية التي هذبت النفوس وصقلتها، وخيال العذري تميز بإبداع الصورة وصدق العاطفة، يقول جميل بثينة:[26]

"أرى كلَّ معشوقين غيري وغيرَها يَلذَّانِ في الدنيا ويغتبطانِ
وأمشي وتمشي في البلاد كأننا أسيرانِ للأعداءِ مُرتَهَنانِ"

فجميل في عشقه يعطينا صورة حقيقية لما يعانيه في هواه مع بثينة، حتى ليخيل إليه أنه ومحبوبته بثينة هما مقيدان أسيران؛ لأنهما في نهارهما وليلهما مرتهنان للعادات والتقاليد.. وكأنه يشكو ويقول: لماذا هذه القسوة وقد تبدلت الحياة والتقاليد؟! وقوله:[27]

"ويكون يومٌ لا أرى لكِ مُرسلاً أو نلتقي فيه عليَّ كأشهرِ
ياليتني ألقى المنيَّةَ بَغتةً إنْ كان يومُ لقائِكُم لم يُقدرِ"

ويقول قيس ليلى:[28]

"أعدُّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ وقد عشتُ دهراً لا أعدُّ الليالِيا"

"هكذا يكون الشعر فيضاً تلقائياً لمشاعر قوية، أصله عاطفة تستذكر كرد فعل..." [29].

وهذه الصورة الشعرية التي أنتجتها مخيلة الشاعر العذري نبعت من وجدانه، فصدق مع ذاته وفي عاطفته وانفعاله في تصوير مشاعره من خلال تجربة نفسية ذاتية عاشها العذري فكشفت عن عمق معاناته وشدة وجده وإخلاصه.

إنّ الشاعر العذري يشكو من شدة الوجد في الجوى وحرقته وألمه، يتحدث مع الآخر (الذات) محاوراً إياها في أسباب ما حدث ومصيره بعدما وقع الحدث- الفراق-.

"وكان لمعاناة الإخفاق في الحب أثرها الكبير في ولادة اليأس في نفس الشاعر العذري؛ لأنه أحب بصدق وعمق، ورفع المرأة التي أحبها بعاطفته النبيلة، فارتفع حبه لها إلى درجة نيّرة من القداسة" [30]، حتى عرف الشعراء العذريون" بالعشق والتفتوا إلى حب الروح، بعيداً عن الجسد، ومالوا إلى العفة والإخلاص، وارتبطت أسماؤهم بأسماء محبوباتهم"[31]، حتى بات الشاعر العذري يتلذذ باسمها، أو ما يوافق اسمها من حروف؛ لأن الاسم يمثل شخص الحبيب في الذاكرة، وهو رمز لما يخفيه من مشاعر وأحاسيس صادقة، ووتر يعزف عليه

ألحان شجونه الحزينة الباكية، وقد ردد جميل اسم بثينة في أبيات متتالية ترديداً مكثفاً يكشف عن شدة المعاناة والتوتر النفسي الذي هو عليه، فقال:[32]

"لقد أورثتْ قلبي وكان مُصحَّحاً بُثينةُ صَدعاً يومَ طارَ رداؤُها
إذا خطرتْ من ذكر بثنةَ خطرةٌ عصتْني شؤونُ العينِ فانهلَّ ماؤُها
فإنْ لم أزُرْها عادني الشَّوقُ والهوى وعاودَ قلبي من بثينةَ داؤُها"

"يتجلى الاغتراب الذاتي في هذا النص من خلال الشكوى من الحب الذي أورث الشاعر العذاب الدائم، وكانت ذاته هي (المحرق)، وفي هذا "المحرق يتلاقى الذاتي بالموضوعي، والكوني والاني بالمطلق"[33]

وأول ما يلفت القارئ هو تكرار اسم (بثينة) ست مرات في ستة أبيات وعلى التوالي، فضلاً عن الضمائر المتصلة والمنفصلة التي تدل عليها، وقد ظهر التكرار بشكل منظم للفظة (بثينة) عبر صيغة النداء ثلاث مرات، وهذا التكرار للاسم يؤكد شدة المعاناة النفسية، فهو يبدو جاثماً بثقله على ذات الشاعر، وترى الدكتورة سناء البياتي أنّ هذا التكرار لا يؤثر سلبيا في المتلقي و"لا يحس بالملل من هذا الترديد لاسم الحبيب، وكيف يكون ذلك وتجربة الشاعر كلها تدور عليها، فهو يعلق في كل مرة يرد فيها الاسم أمراً غير سابقه من أمور تجربة الحب التي يعيشها"[34]، فالشاعر بهذا الترديد الملحّ يعطينا مفتاحاً للدخول إلى ذاته وكشف غايته المقصودة بهذا اللفظ المكرر الذي سلط الضوء على نقطة حساسة في النص، اهتم بها الشاعر ولها أكبر الأثر في ذاته، فالتكرار هنا هو "أحد الأضواء اللاشعورية التي يسلطها الشاعر على أعماق النفس، فيضيئها بحيث تطلع عليها"[35]

المبحث الثاني

الشكوى الاجتماعية

"إنَّ الشكوى الاجتماعية أساسها الشعور بالتوجع من الناس في المجتمع الذي يعيشه الفرد؛ لعدم توافقه اجتماعياً، فالتوافق إذن هو ثمرة التكيف، وسوء التوافق يدل على فشل الفرد أو عدم قابليته على ملاءمة ما هو نفسي بما هو اجتماعي، أي هو عدم قدرته على تخطي عقبات البيئة، أو التغلب على صعوبات المواقف" [36] فقد يواجه الفرد عقبات، يرجع أساسها إلى تغيرات ظروف الحياة ومواقف الفرد نفسه، كموت شخص عزيز، أو خيبة أمل حب، أو صراعات الحب التي تتطلب توافقاً في الحال، ونتيجة لهذه العقبات التي لا يستطيع الفرد التغلب عليها.

إنَّ الشاعر عندما يلجأ إلى الشكوى للتعبير عما في داخله، فهو لا يعبر عنها بمعزل عن واقعه الاجتماعي، فـ "الأديب يتأثر بالحياة الخارجة السائدة في بيئته القائمة في مجتمعه، وهو يستمد أدبه من حياة هذا المجتمع"[37].

وقد تتعارض العادات والتقاليد المتوارثة في المجتمع، والتي تمثل جزءاً من الثقافة السائدة فيه، مع رغبات الفرد وميوله إذ "عادة ما يضع المجتمع المعايير والقيود الاجتماعية التي قد تؤدي إلى حرمان الفرد من إشباع بعض حاجاته"[38]، مما يؤدي إلى إثارة التوتر والقلق، ومن ثم الشكوى والأنين من ذلك المجتمع.

لقد اصطدم الشاعر العذري بواقع مجتمعه المثقل بالتقاليد والعادات الموروثة، والتي فرضت عليه وحرمته من الزواج ممن أحبها، وأفنى العمر من أجلها.

"إن إخفاق الشاعر العذري في الحب سببه الأول هو العادات الاجتماعية القاسية التي كانت تفرض على الشاعر أن لا يبوح بسر الهوى، وكيف لا يبوح وهو صاحب الحس المرهف الذي لا يتمالك نفسه عندما تجيش الإحساسات والمشاعر تجاه الحبيبة"[39]، ونتيجة لموقف العرف الاجتماعي من المحبين، فقد ظل الشاعر العذري يعاني منه ومن قيوده، على الرغم من التزامه بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف؛ لأن الإسلام قد ربط بين مفهوم الحب ومفهوم العفة، فحصن عاطفة الحب، وجعل العفة إطارها الاجتماعي، ومن هنا نقول: إنّ العفة هي أُولى صفات الحب العذري وأبرز علاماته"[40]، "قيل لأعرابي: ما تصنع إن ظفرت بمحبوبتك؟ قال: أمتع عيني من وجهها، وسمعي من حديثها، وأستر منها ما يحرم كشفه إلا عند حلّه، ويقول ابن حزم "ومن أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفف، وترك ركوب المعصية والفاحشة"[41].

لقد ظهرت الشكوى الاجتماعية في شعر الحب العذري من العواذل واللائمين، وكان أغلبهم من الأهل الأقارب والأصدقاء الذين رفضوا هذا الحب، إمّا إشفاقاً منهم على العاشق؛ لما لحق به من أذى، وإمّا تهديماً وتخريباً لحياتهم السعيدة بدافع الحسد والحقد.

لذلك عانى الشاعر العذري من لوم اللائمين، وشكا من ظلمهم، طالباً منهم الكف عن هذا اللّوم، وغالباً ما يكون اللّوم من العذال، يقول أبو بكر محمد بن داود الظاهري: "يبتلى بلوم في حبه، ويريد أن يثنيه عن حبه، فإن كان حبه مكينا ارتد عنه العاذل خاسئاً وهو حسير، ويتوهم بعض المحبين أن العذل زادهم في نفوسهم إشفاقاً على من عوتبوا في محبته، فيخافون أن يتأثروا بالعذل، فيقاوموا ويتشبثوا بالمحبوب"[42].

قال قيس ليلى[43]:

"وقالوا لو تشاءُ سلوتَ عنها فقلتُ لهم فإني لا أَشاءُ
وكيف وحبُّها عَلِقٌ بقلبي كما عَلِقتْ بـأَرشِيَةٍ دِلاءُ
لها حبٌ تَنَشَّأَ في فؤادي فليس له وإنْ زُجرَ انتهاءُ"

تتحرك هذه الأبيات في فضاء من التصورات المتشكلة في إطار محاولة السلوى وتمرد القلب، وإحاطته بعدد كبير من اللائمين أفصحت عنه لفظة (قالوا) التي رددها ثلاث مرات في النص، وهي تحمل الدلالة الحوارية،

وقد توسطتها لفظة (عاذله) التي تؤكد أنّ الحوار كان فيه لوم وزجر، ولم يزدْهُ إلا إصراراً على استمرار الحب لأنّه تمكن من نفسه وأصبح قضاءً لا يحلّه إلا القضاء.

وشكا جميل بثينة من كثرة العذال حوله، فقال[44]:

"أعاذلتي أكثرتِ جهلاً من العذلِ على غير شيءٍ من ملامي ولا عذلي
نأيتُ فلم يُحدِثْ ليَ النأيُ سلوةً ولم ألفِ طولاً على خُلَّةٍ يُسلي"

هكذا كان يضيق صدر الشاعر ببعض ما يواجه من مصائب هؤلاء العذال، فيصبر عن معاناته النفسية بهذه الوسيلة المتاحة له ألا وهي الشعر الذي ينفث به على لسانه ليخفف هذه المعاناة والآلام.

وما شكواه هذه إلا لما يعانيه من كثرة لوم العاذلة، ولم يزده إلا تمرداً وإصراراً على مواصلة الطريق؛ لأنه اختبر نفسه في النوى والسلوى عن أحبته، لكنه ألف ذلك وتعود عليه، وقد شكا وتألم مجنون ليلى كثيراً من الناس، ويرى أندريه ميكيل " أنَّ حب المجنون لليلى دفعه للانفصال عن طبيعة تقاليد مجتمعه المحافظ... ودفعه لينفي نفسه عن مجتمعه مفضلاً العيش في الصحراء بعيداً عن الوحدة الاجتماعية الممثلة بالقبيلة، وهنا يسلط المؤلف (جليل العطية) نظرة سيسولوجية تفسر هذا النفي الذي اختاره المجنون لنفسه، وتقبله المجتمع على الرغم من أن وجوده- وجود المجنون- كان يهدد النظام الرمزي العام للمجتمع والقبيلة، ثم أن قيساً كان يستعيد على الدوام قصة حبه لليلى ويرددها بشكل علني، ولم يكن هذا الأمر مقبولاً في العرف الاجتماعي آنذاك، ولذلك فإن قيساً كان خارج النظام الجماعي الذي هرب منه، والذي كان يشكل بعض الخطورة على كيانه"[45]، قال:[46]

"أرى أهلَ ليلى أورثوني صبابةً ومالي سوى ليلى الغداةَ طبيبُ
إذا ما رأوني أظهروا لي مودةً ومثلَ سيوفِ الهندِ حين أغيبُ
فإن يمنعوا عينيَّ منها فمن لهم بقلب له بين الضلوع وجيبُ"

في هذا النص رسم لنا المجنون صورة فنية لطرفي نقيض، تتصرع بينهما ذات معذبة تصرخ وتشكو من أهل ليلى الذين أورثوه الصبابة، وإذا تأملنا النص جيداً نجد أنَّ الشاعر قد نجح في اختيار الألفاظ ذات الدلالات الموحية لرسم الصورة الأدبية والتي عبرت عن عمق التجربة العاطفية، وصدق المشاعر تجاه المعشوقة النائية، ونلاحظ أنّ المجنون يرمي بثقل شكواه من أهل ليلى، فهم الطرف المعادي من ثنائية (الحبيب/الأهل)، فليلى هي الطبيب وأهلها هم الداء، لذا ظهر توتره النفسي من موقفهم السلبي اتجاه هذا الحب الصادق العفيف، وحاول الشاعر التعبير عن واقعه النفسي وأحاسيسه في تجربة نفسية خاصة خلقت جواً معبراً عن عمق وأصالة

في وجدان الشاعر، وتكاد تكون سمة اتسمت بها نفوس الشعراء العذريين بصورة عامة أثرت قصائدهم بهذه النغمة الذائبة الحزينة.

لقد رتب المجنون الكلمات في الأبيات بطريقة مخصوصة في التأليف، على وفق ترتيب المعاني في النفس التي تتألم بسبب موقف أهل ليلى، أمّا أهله فقد أساءهم ما أصاب ابنهم من مصائب بسبب حب ليلى فاجتمعوا إلى أبي ليلى، فوعظوه وناشدوه الله والرحم، وقالوا له: إنَّ هذا الرجل لهالك، وقبل ذلك هو في أقبح من الهلاك، وإنك فاجع به أباه وأهله، فنشدناك الله والرحم أن تفعل ذلك، فو الله ما هي أشرف منه، ولا لك مثل مال أبيه، وقد حكم في المهر، وإن شئت أن يخلع نفسه إليك من ماله لفعل، فأبى وحلف بالله وبطلاق أمها أنه لا يزوجه إياها أبداً، وهذا إنما هو الحكم الاجتماعي الذي أصدره (أبو ليلى) على قيس، إنه الموت... والتحطيم النفسي... والشكوى الدائبة حتى مفارقة الحياة روحاً وجسداً.

قال أبو قيس لابنه: يا بني هل لك أن تسلو بغير ليلى؟ فقال: والله ما أجد إلى السلوّ سبيلاً، وإني لفي أعظم الكرب والبلاء، وأنشأ يقول:[47]

"وكم قائلٍ لي أسْلُ عنها بغيرها وذلك من قولِ الوشاةِ عجيبُ
فقلتُ وعيني تستهلُّ دموعها وقلبي بأكنافِ الحبيب يَذوبُ
لئن كان لي قلبٌ يذوب بذكرها وقلبٌ بأخرى، إنّها لقلوبُ"

كما شكا المجنون من القوم الذين فهموا سبب رفض أهل ليلى خطأ فقالوا ما قالوا، فلما سمع مقالتهم بكى بكاءَ متوجعٍ، وأنشأ يقول:[48]

"ألا أيّها القومُ الذينَ وشوا بنا على غير ما تقوى الإله ولا برّ
ألا ينهكُمْ عَنّا تُقاكمْ فتنتهوا أَمَ أنتم أُناسٌ قد جُبْلتمْ على الكفرِ
تعالوا نَقِفْ صَفّينِ مِنّا ومنكُمُ وندعو إله الناس في وضح الفجرِ"

صورة رائعة رسمها الشاعر تتجلى فيها الشكوى وهي تدور في هذا النص في دائرة مقفلة لعرف اجتماعي اعتاد عليه المحبون...فإن إذاعة خبر الحب بين الناس ينسج القصص والطعن والشك... مما يجعل أهل الفتاة يرفضون تزويجها لمن تحب، كي لا يثبتوا الشك عليهم، وغالباً ما يزوجونها إلى شيخ القبيلة؛ لإثبات شرفها وحسن أخلاقها.

لقد شكا المجنون من ظلم المجتمع المتجسد في صورة القوم الذين أساءوا للعلاقة الطاهرة التي جمعت بينهما منذ التقيا حتى فارقهم القدر... لذا سعى جاهداً إلى إثبات الحقيقة بإخراج زفرات نفسه المعذبة بالقسم بكل شعائر الحج.

ولم تكن الحالة النفسية لقيس لبنى وظلم المجتمع له أفضل من قيس ليلى؛ لأنّ الظلم وقع عليه من أقرب الناس له، إنّه ظلم أبيه له بعدما شاء له الله أن يتزوج من لبنى، ولكن بعد سنة من زواجهم يطلب من قيس أن يطلقها.

وأجمع الباحثون على أنّها قصة إنسانية امتاز بطلها بقوة العاطفة والوفاء الشديد "وأنّها جهاد بين البر والحب... رجل يريد أن يكون براً بأبويه ووفياً لزوجه، فيستحيل عليه التوفيق بين هاتين الخصلتين، فيضحي بأحدهما في سبيل الأخرى، ولكن هذه التضحية تنغص عليه حياته كلها، وتضطرّه إلى ألوان من الهول، وضروب من الألم لا تكاد تحصى"[49] وقد شكا موقف أبيه، فقال:[50]

"فصرتُ وشيخي كالذي عثرتْ بهِ غداةَ الوغى بينَ العُداةِ كُميْتُ

فقامت، ولم تُضرَرْ هناك، سويّةً وفارسُها تحتَ السنابكِ ميْتُ"

وبعد أن طلقها ونفد أمر الشيخ (أبيه) مرض مرضاً شديداً أشرف منه على الموت، فدخل إليه أبوه ورجال قومه فكلموه وعاتبوه، فقال: ويحكم! أثّروني أمرضت نفسي أو وجدت لها سلوةً بعد اليأس فاخترت الهم والبلاء، أو لي في ذلك صُنع! هذا ما اختاره لي أبواي وقتلاني به، فجعل أبوه يبكي ويدعو له بالفرج والسلوة، فقال قيس:[51]

"لقد عذّبتني يا حبَ لبنى فقع إمّا بموتٍ أو حياةِ

فإنّ الموتَ أروحُ من حياةٍ تدومُ على التباعد والشّتَاتِ"

إنّ الشاعر هنا يصف ويصور حزنه ومعاناته وعذابه بعد طلاقها ويشكو من قول الأهل والأقارب (تعز عنها). فكيف يستطيع ذلك وهو يتأرجح بين الحياة والموت، ويفضل الموت على الحياة بعدما وقع الفراق، فالشاعر تخيل حبها إنساناً فحاوره وخاطبه بأنّ العيش بدونها مكدر الحياة، لهي حياة أيسر من الموت.

كما شكا من أقوال الناس على لبنى بعد أن طلقها، وندم على هذا القرار بعد أن عذبه الحب المتنامي في قلبه الحزين، فقال:[52]

"يقولون: لبنى فتنةٌ كنت قبلها بخير فلا تندم عليها وطلِّقِ

فطاوعتُ أعدائي وعاصيتُ ناصحي وأقررْتُ عين الشامتِ المتخَلّقِ"

إنّ الشاعر في هذا النص يرسم صورة لمعاناته النفسية، وما حل به بعدما نفذ أمر الآخر، وظهر هنا بصورة الجماعة المعادية – إن جاز التعبير– (يقولون، أعدائي، عصيتهم) وبأسلوب حواري يوضح الشعور والأفكار التي أراد طرحها في النص على لسان (الآخر) وهو حوار لا يخرج عن نطاق المحاورة القريبة، إذ كانت أطراف الحوار متقاربة وضمن حيز زماني ومكاني محدد... وهو حوار مع الذات الشاكية الباكية.

أمّا جميل بثينة، فقد شكا هو الآخر من ألم اللوم، فقال:[53]

"لقد لامني فيها أخٌ ذو قرابةٍ حبيبٌ إليه في نصيحتِهِ رُشدي
فقلتُ له: فيها قضى الله ما ترى عليَّ وَهَلْ فيما قضى الله من رَدِّ"

وجميل في حبه وهواه هذا لا يختلف عن العشاق الآخرين – قبله وبعده– الذين يظنون أنهم هم وحدهم المعذبون في الأرض وأنّ غيرهم في عشقهم سعداء، حتى يخيل إليه أنه وبثينة مقيدان يصبحان أسيرين للعادات والتقاليد الاجتماعية المقيتة، يفرق بينهما الناس وتفصل بينهما الحياة.

والقارئ لشعر جميل بالذات يلمس الأنفة والاعتداد بالنفس، فهو في الوقت الذي يدافع عن بثينة ولا يرضى بديلاً عنها، لا يصغي ولا يذعن لأقوال الوشاة فيها، إذ يقول:[54]

"وما زادها الواشون إلا كرامةً عليَّ وما زالتْ مَوَدَّتُها عندي"

ويرسم لنا جميل حديث العواذل وما يقمن به من وشاية للإيقاع بهما (التفريق بين العاشقين)، أثبته لنا من خلال قوله الذي ينم عن وفاء في رقة وصدق عاطفة؛ ليثبت لبثينة خلوده في الحب ورضاه عنها بكل ما تفعل وتصنع... ثم يصور لنا موقفها منه فيقول:[55]

"وأطعتِ فيّ عواذلاً فهجرتني وَعصيتُ فيكِ وقد جَهَدْنَ عواذلي"

فالشاعر هنا أقام موازنة لطيفة ومشوقة بين موقفه وموقف معشوقته، تدل على إيثار وتضحية مثلها شعره في هذا الموقف فيغيظ أعداءه.. هكذا كان جميل وأقرانه يعانون حيل الوشاة والعاذلين، وإذا تكاثر عليهم اللّوم صدموهم بمنطق الحب، كما فعل جميل هنا بقوله:[56]

"لقد فَرِحَ الواشونَ أنْ صَرَمتْ حَبلي بثينةُ أو أبْدَت لنا جانبَ البُخْلِ
يقولون: مهلاً يا جميلُ! وإنّني لأقسِمُ مالي عن بثينة من مهلِ"

أمّا كثير عزة فقد قال:[57]

"لقد كذب الواشونَ ما بُحتُ عندهم بليلى ولا أرسلتُهُم برسيلِ
فإن جاءك الواشون عني بكذبةٍ فَرَوْها ولم يأتوا لها بحويل
لقد أكثرَ الواشون فينا وفيكمُ ومالَ بنا الواشونَ كلَّ مَميلِ
وما زلتُ من ليلى لَدُن طرَّ شاربي إلى اليوم كالمقصي بكلِّ سبيلِ"

وقوله أيضاً:[58]

"وخبرها الواشون أني صَرَمتُها وَحَمّلها غيظاً عليَّ المحمّلُ
وإني لمنقادٌ لها اليومَ بالرّضى ومعتذرٌ من سُخطها متنصّلُ"

وقيس ليلى هو العاشق الآخر الذي لا يكاد يختلف عن أقرانه في أساليبه ومعانيه حين يتحدث عن الوشاة والنمائم، فيقول:(59)

"يقولُ ليَ الواشون ليلى قصيرةٌ فليتَ ذراعاً عَرضُ ليلى وطولها

وإنَّ بعينيها– لَعَمرُكَ شُهلةً فقلتُ كِرامُ الطير شُهلٌ عيونها"

نجد أنّ طابع الشعر عند قيس هو الوضوح، وخوف الافتضاح، لذلك أحبه الناس لرقته وعفته حتى ألصق الناس به كل شعر فيه ذكر ليلى، وهيام وجنون وذهاب مع الهوى، وهذا ما أكده كتاب الأغاني، ويشير إلى هذا المعنى، بقوله:(60)

"وماذا عسى الواشونَ إنْ هم تحدَّثوا سوى أن يقولوا إنني لك عاشقُ

نعم صَدَقَ الواشون أنتِ حبيبةٌ إليَّ وإن لم تصفُ منك الخلائقُ"

هكذا نجد الشاعر يخاطب ليلى بقوله: إنّني لا أخاف من الوشاة...ليثبت لها صدقه وإخلاصه ووفاءه لهذا الحب، ودليل هذا الثبات أنّنا نلمس في شعره الصفاء، وفي حبه الوجدانية، يندفع بشعور تلقائي، وبتعبير مباشر صادق، فيصوَّر لنا هذا الواقع الاجتماعي الذي يعيشه بأخلص حس جسدته تجربته النفسانية، ولعلَّ في قول جميل خير دليل على ما تقول:(61)

"فما زادني الواشون إلا صبابةً ولا زادَني الناهونَ إلا تماديا"

والوشاية: صفة مذمومة قديماً وحديثاً– لا شك في ذلك– وهي جزء من السلوك الاجتماعي، وهي عادة سلبية قد نجد آثارها في زماننا.

ونستنتج مما تقدم من نصوص شعرية لهؤلاء الشعراء العذريين، وهم يصورون معاناتهم النفسية، ويصفون ما يقع عليها من أسى ويأس وهجر وفراق، وما يعترض سبيلهم من وشايات وموانع وحواجز اجتماعية تحول دون الوصول إلى معشوقاتهم، وما يبذلونه من عهود في الوفاء والإخلاص لهذا الحب، وما يعيشون فيه من أمل اللقاء، أنّ جُلَّ ذلك كانوا يعرضونه بصورة معنوية بعيدة كل البعد عن الصورة المادية الحسية، كما كان يفعل من سبقهم في الجاهلية، لذلك كانوا يقدمون الروح على الجسد، فجاء شعرهم جديداً في بعض صوره، رقيقاً في أساليبه ومعانيه متأثراً بثقافة القرآن والإسلام، لهذا كان قريباً إلى قلوب الناس وألصق بها.

الهوامش

([1]) مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت: 2/ 295، وينظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (ت276هـ)، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر: 1/ 1966، وعيون الأخبار، ابن قتيبة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، 1963م: 143/1، وجمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي (ت626هـ)، المطبعة الأميرية الكبرى، بولاق، مصر ، 1308هـ: 38، ولسان العرب، ابن منظور (ت711هـ)، دار لسان العرب، بيروت: 139/2، والنظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري، هند حسين طه، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق 1981م: 64، ونشأة النقد الأدبي حتى نهاية القرن الأول الهجري، أحمد يوسف محمد خليفة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ط1، 1983م: 52.

([2]) جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي، (ت 456هـ)، دار المعارف، مصر 1962م: 486، وينظر: العرب قبل الإسلام، جرجي زيدان، دار الهلال، 1914م: 192.

([3]) الشعر والشعراء، ابن قتيبة (ت276هـ)، ليدن، 1904م، ص:260.

([4]) المصدر نفسه، ص : 260، وينظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة (ت276هـ)، تح: أحمد محمد شاكر ، دار الثقافة، بيروت:346/1-347.

([5]) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، د. مصطفى الشكعة، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة المعرفة، (د.ط)، 258، ص 1958.

([6]) الأعراف/150.

(*) أي المعنى يظهر من خلال سياق الآية.

([7]) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية، القاهرة، 1327 هـ ، ص: 198.

([8]) الشكوى في شعر القرن الرابع الهجري (رسالة ماجستير)، جواد رشيد مجيد، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، 1988م، ص :4.

([9]) ظاهرة الشكوى في شعر هذيل (رسالة ماجستير)، بتول البستاني، جامعة الموصل، كلية الآداب، 1978م، ص: 17.

([10]) المصدر نفسه، ص: 3.

([11]) الشكوى في الشعر الأندلسي- عصر الطوائف 403هـ- 536هـ (رسالة ماجستير)، فاطمة مظلوم، جامعة بغداد ،كلية التربية للبنات، 1991م، ص : 29.

([12]) ديوان مجنون ليلى، جمع وتحقيق وشرح: عبد الستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة، (د.ت) ص: 104.

([13]) المصدر نفسه، ص:185.

([14]) ديوان الصبابة، أحمد بن حجلة المغربي (ت776هـ)، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1980م، ص:98.

([15]) الأسس الفنية للنقد الأدبي، عبد الحميد يونس، دار الحمامي للطباعة، 1958م: 100.

([16]) ديوان قيس ولبنى، جمع وتحقيق وشرح: عبد الستار أحمد فراج، دار مصر للطباعة، (د.ت) ص: 71.

([17]) لغة الحب في شعر المتنبي، عبد الفتاح صالح نافع، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1938م، ص: 297-298.

([18]) المصدرنفسه، ص:24.

([19]) تمهيد في النقد الحديث، روز غريب، بيروت، ط1، 1971م ص: 239. وينظر: النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، روز غريب، دار العلم للملاين، بيروت، ط 1952م، 88/1.

([20]) شرح ديوان جميل بثينة، شرح وتحقيق: عدنان زكي درويش، دار الفكر العربي ، بيروت، ط1، 1994م. ص :66.

([21]) في الشعر الإسلامي والأموي، د. عبد القادر القط، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م ص:103.

([22]) ديوان قيس، تحقيق: مصطفى غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1960م. ص: 67.

([23]) مفهوم الشعر- دراسة في التراث النقدي، جابر عصفور، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1987م ص: 436.

([24]) في النقد الأدبي، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1962م ص:167.

([25]) في الأدب وفنونه، علي بو ملحم، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1970م ص:9.

([26]) شرح ديوان جميل، عدنان زكي درويش، ص: 192.

([27]) المصدر نفسه، ص: 92.

([28]) ديوان قيس، مصطفى غازي، ص: 298.

([29]) مناهج النقد الأدبي- بين النظرية والتطبيق، ديفد ديتسش، تر:د. محمد يوسف نجم، مراجعة: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1967م. ص:526.

([30]) القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه حتى منتصف القرن العشرين، ثريا عبد الفتاح، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964م ص:91.

([31]) قراءة جديدة لشعرنا القديم، صلاح عبد الصبور، منشورات اقرأ، بيروت، (د.ت) ص:66.

([32]) شرح ديوانه، رحاب عكاوي، ص: 19-20..

([33]) حركية الإبداع، خالدة سعيد، دار العودة، بيروت، ط 1982م: 2 ص: 98.

([34]) البناء الفني لشعر الحب العذري في العصر الأموي (أطروحة دكتوراه)، د.سناء حميد البياتي، جامعة بغداد، كلية الآداب، 1989. ص: :81.

([35]) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1962م ص: 276-277.

([36]) علم النفس ودراسة التوافق، كمال دسوقي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1974م ص: 33.

([37]) الأدب وفنونه- دراسة ونقد، عز الدين إسماعيل، دار الثقافة العربية، مصر، (د.ط)، (د.ت) ص:42.

([38]) سيكولوجية الفرد في المجتمع، ثامر إسماعيل، مجلة المعرفة، 2000م، ص: 248.

([39]) شعر الحب في العصر الأموي، دراسة في ثنائيات الشكل والمضمون (أطروحة دكتوراه)، د. هناء جواد، جامعة بغداد، كلية التربية/ ابن رشد، 1995م.ص: 61.

([40]) الحب عند العرب، د. عادل كامل الآلوسي، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط1، 1999م، ص: 185.

([41]) طوق الحمامة في الأُلفَة والآلاف، ابن حزم الأندلسي (ت456هـ)، تح: فاروق سعد، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1972م، ص: 302.

([42]) الزهرة ، محمد بن داود الأصبهاني (ت297هـ)، تح: د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط2، 1985م. ص: 325/1.

([43]) ديوان قيس ليلى، مصطفى غازي، ص: 42-43.

([44]) شرح ديوان جميل، عدنان زكي درويش، ص: 170.

([45]) وجوه عديدة لعاشق واحد اسمه مجنون، أندريه ميكيل، دار سندباد الفرنسية، ط1، 2004م. ص: 184.

([46]) ديوان مجنون ليلى، عبد الستار أحمد فراج، ص: 53.

([47]) المصدر نفسه، ص: 56.

([48]) المصدر نفسه، ص: 157-158.

([49]) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، 2/ 239.

([50]) ديوان قيس، مصطفى غازي، ص: 70.

([51]) المصدر نفسه، ص: 71.

([52]) ديوان قيس، مصطفى غازي، ص: 133.

([53]) شرح ديوان جميل، عدنان زكي درويش، ص: 64-65.

([54]) المصدر نفسه ، ص: 65.

([55]) المصدر نفسه، ص: 172.

([56]) المصدر نفسه، ص: 166.

([57]) المصدر نفسه، ص: 184-185.

([58]) المصدر نفسه، ص: 164.

([59]) ديوان مجنون ليلى، عبد الستار أحمد فراج، ص: 288.

([60]) المصدر نفسه، ص: 203.

([61]) شرح ديوان جميل، عدنان زكي درويش، ص: 217.